(٩)

السيدة صفية بنت حُيىّ - رضى الله عنها

بعد إجلاء قبائل اليهود من المدينة لخيانتهم الأمانة، ونقضهم العهود التى أبرموها مع النبى ﷺ، صار لهم وجود خطير فى «خيبر» وبيتوا النية على الغدر بالمسلمين وإيقاع الأذى بهم لا لذنوب جنوها، ولكن لأنهم مسلمون؟!

وفى العام السابع من الهجرة المباركة إلى المدينة عقد النبى العزم على ردع اليهود الذين اتخذوا من خيبر مركزاً للتآمر على المسلمين ولكنهم احتموا بحصونهم فحوصروا مدة، ثم اقتحمت حصونهم وأوقع بهم المسلمون هزيمة منكرة.

قتلوا فرسانهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، وأسفرت المعركة عن انتصار عظيم للمسلمين، وهزيمة نكراء لمعاشر اليهود.

وما إن وضعت الحرب أوزارها، إذَا بالجميع يفاجأون بأن صفية بنت حُىّ بن أخطب - ابنة سيد اليهود - تقع فى الأسر وتساق مع نساء اليهود الأسيرات.

هذا وقد بدا عليها الذهول والوجوم لما مُنى به قومها، وما حل

بديارهم من خراب، فقد تبدَّلت الأحوال فى لمح البصر بالأمس كانت «أميرة» ترفل فى حلل النعيم، وحولها الخدم والحشم، والآن أمست «أسيرة» وحيدة لا تدرى ما خبَّأ لها القدر من مصير، وحرمان الأغنياء عذاب، وذل الأعزاء جحيم.

إن الذى بقى من يهود خيبر هم الشيوخ الفانون، والعجزة والنساء والأطفال، فما عساها تفعل وقد تجردت من كل حول وطول وصار أمرها بيد غيرها بعد أن كان أمر غيرها بيدها منذ ساعات قصار، وهكذا يجعل الله الأيام دولا بين الناس، وتبدُّل الأحوال هى السنة المطردة فى الحياة.

وَوُزِّعَتْ السبايا فوقعت «صفية» فى سهم لغير رسول الله ﷺ، ولكن عقلاء القوم أنزلوها منزلتها فجعلوها فى سهم رسول الله، لأنها كانت عزيزة مرموقة فى قومها، لأنها ابنة سيدهم.

كانت فى سن السابعة عشرة، تزوجت مرتين، وقتل زوجها الثانى فى المعركة الأخيرة التى سُبِيَتْ فيها صفية وكان اسمه: كنانة ابن الربيع.

فنظر إليها رسول الله ﷺ وقرأ فى وجهها ما يجول فى نفسها من هموم وغموم وخوف من المجهول، كتمت أحزانها وتحكمت فى عواطفها، لم تصرخ أو تلطم وجهاً أو تشق ثوباً أو تنكش شَعْراً كما كانت تفعل سبايا اليهود، بل لزمت الصمت الوقور مع صغر سنها، وكما قال الرسول ﷺ:

«الناس معادن: خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام، وشرارهم فى الجاهلية شرارهم فى الإسلام».

تجمعت كل هذه المعانى فى قلب نبى الرحمة، فَرَقَّ قلبه لصفية وقال لها:

أعتقك وأتزوجك، وإن شئْت أن ترجعى إلى أهلك فارجعى، فزال ما بها من هم وغم وكرب، وأسرعت تقول للنبى ﷺ:

«كنت أتمنَّى هذا فى الشرك فكيف إذَا أمكننى الله منه فى الإسلام».

وقضى الله أمراً كان مفعولاً.

ثم قصت عليه رؤيا وقعت لها، قالت:

ليلة أن بنى بى كنانة بن الربيع أبصرت وأنا نائمة أن قمراً هوى فاستقر فى حجرى، فقصصت الرؤيا على زوجى كنانة، فلطمنى لطمة ما يزال أثرها مكدوماً فى وجهى ثم أرته أثر اللطمة ثم قالت: وقال لى: إنَّك تتمنين ملك الحجاز محمداً، أن يكون لك زوجاً؟ وها هى ذى الأيام تثبت صدق ما غاظ ذلك اليهودى فأعرس بها عليه السلام، وَعُدَّتْ أُمًّا من أمهات المؤمنين، والسعد وعد كما قلنا من قبل فى زواجه عليه السلام من أم المساكين، التى لم تعش فى كنف النبوة أكثر من تسعين يوماً، وظل الرسول وفيًّا لها حتى لحق بالرفيق الأعلى، يدافع عنها بين زوجاته لأنها

غريبة ولأن اليهودية أصلها، وكانت ديانتها، وما يزال الانتماء إلى اليهود مغمزاً وذماً.

تُرى ما السبب الذى من أجله تزوج النبى السيدة صفية بنت حُيىّ؟ وهو فى السابعة والخمسين من عمره المبارك إنه المواساة والرحمة، وإعزاز عزيز قوم ذل، أو إقالة عثرات ذوى المرءوة، وفوق ذلك كله إرادة الله الكبير المتعال، ذلك هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، أما أن يكون السبب هو إشباع الغريزة الجنسية كما يزعم المبشرون والمستشرقون، فهو محال محال. . محال لما قدمناه من السبب الحقيقى.

ومحال لأن صاحب الرسالة كان فى السابعة أو الثامنة والخمسين من عمره، مع شدة اشتغاله بشئون الدولة والدعوة ولم يجرب عليه الناس تهالكه على إشباع الغريزة الجنسية، وهو فى فورة الشباب، فكيف يخضع لها وهو فى حكمة الشيوخ؟!

* * *